أبو المظفر السمعاني ومنهجه في التفسير

أ.د. غالب بن محمد الحامضي

أستاذ التفسير والحديث بقسم الكتاب والسنة

كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى

المقدمة :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده

وبعد:

فإن من أجل العلوم وأشرفها، العلم بكتاب الله عز وجل، وفهمه وتدبره، وقد هيأ الله لهذا الكتاب علماء ربانيين، سخروا أوقاتهم، و أفنوا أعمارهم في تفسيره وتدبر معانيه، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام الإمام أبو المظفر السمعاني(ت 489هـ)، وتفسيره يعد من التفاسير المتقدمة، التي ألفت في عصر مبكر، اعتمد فيه على ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، ومما يمتاز به هذا التفسير أنّ صاحبه سلفي المعتقد، ولذلك قرر في تفسيره عقيدة السلف الصالح، والرد على مخالفيها، وكذلك امتاز بالبعد عن التعصب المذهبي في المسائل الفقهية، والعناية بسياق النكات والفوائد في النظم القرآني ومعانيه النحوية والبلاغية.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في التالي:

- إنّ هذا التفسير من كتب التفسير بالمأثور ويعد من أجل كتب التفسير المتقدمة

- إنّ مؤلفه الإمام السمعاني إمام في التفسير سلفي المعتقد أصل في تفسيره معتقد أهل السنة والجماعة ورد فيه على الفرق الضالةكالمعتزلة وغيرها.

أسباب اختيار الموضوع:

- التعرف على شخصية هذا العالم الفذ وإبراز علمه وفضله

- إبراز هذا التفسير والوقوف على منهجه وذكر بعض المآخذ عليه.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وفهارس.

المبحث الأول: في ترجمة أبي المظفر السمعاني.

المبحث الثاني: في منهجه في تفسيره.

المبحث الثالث: في المآخذ على تفسيره

المبحث الأول

الإمام أبو المظفر السمعاني

المطلب الأول: اسمه ونسبه[1].

الإمام أبو المظفر: منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد ابن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع السمعاني[2].

مولده ونشأته:

ولد في ذي الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية بمرو- أشهر مدن خراسان- ونشأ في بيت علم ودين وزهد، فأبوه من أئمة الحنفية، ولذلك درس على يديه حتى برع في الفقه الحنفي[3]

طلبه للعلم:

كان الإمام أبو المظفر ذاهمة عالية، وملكة قوية في الحفظ، فقد قال عن نفسه: ((ما حفظت شيئا فنسيته[4])) ولذلك حرص والده على تعليمه، فكان شيخه الأول، فنهل

(١) ينظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (19/ 114-119) طبقات المفسرين للداوي (2/ 329) طبقات الشافعية الكبرى (5/ 335-346)

(٢) بفتح السين وسكون الميم وفتح العين نسبة إلى سمعان وهو بطن من تميم (الأنساب 3/ 298)

(٣) سير أعلام النبلاء (19/ 115)

(٤) السير (19/ 119)

من علومه، حيث كان من أئمة الحنفية، فتفقه عليه وبرع في مذهب أبي حنيفة، قال عنه الإمام السبكي(١): سمع الحديث في صغره وكبره(٢).

ولم يقتصر في طلبه العلم على والده، بل تلقاه من علماء بلده، فأخذ عنهم التفسير والحديث والعقيدة والفقه وأصوله(٣).

المطلب الثالث: رحلاته.

لم يكتف الإمام السمعاني بعلماء بلده، بل رحل إلى جرجان وهمذان وقزوين والري(٤)، فاستفاد من علماء تلك المدن، وسمع الأحاديث النبوية من كبار المحدثين هناك.

ولم يقنع بهذا بل رحل إلى بغداد وتلقى العلم من علمائها (٥)، ثم رحل إلى الحجاز وبقي هناك يتلقى العلم من علماء مكة، وأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى خرسان ودخل مرو سنة ثمان وستين وأربعمائة(٦).

---

(١) السبكي هو تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ه فقيه اصولي شافعي (الوافي بالوفيات ١٩/ ٣١٥)

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (5/ 335-336)

(٣) السير (19/ 115)

(٤) أنظر التدوين في أخبار قزوين (4/ 119)

(٥) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (4/ 93) وطبقات السبكي (5/ 344)

(٦) طبقات الشافعية للسبكي (5/ 337)

المطلب الرابع: انتقاله من مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية.

لعل من الأسباب التي جعلت الإمام السمعاني ينتقل إلى المذهب الشافعي الرؤيا التي رآها في منامه، حيث يقول: لما اختلج في ذهني تقليد الشافعي، وزاد التردد عندي، رأيت رب العزة جل جلاله في المنام فقال: ((عد إلينا يا أبا المظفر)فانتبهت وعلمت أنه يريد مذهب الشافعي فرجعت إليه)) [1]، إضافة إلى ملازمته للإمام سعد الزنجاني [2]، والذي كان شافعي المذهب.

وهناك سبب آخر لانتقاله من المذهب الحنفي إلى الشافعي، وهو تغلب أفكار القدرية على علماء المذهب الحنفي آنذاك، وقد صرح الإمام بهذا لأخيه أبي القاسم لما لامه وهجره، وأظهر له الكراهة، وقال للإمام: خالفت مذهب الوالد وانتقلت عن مذهبه، فرد عليه قائلا:(ما تركت المذهب الذي كان عليه والدي –رحمه الله –في الأصول بل انتقلت عن مذهب القدرية، فإن أهل مرو صاروا في أصول اعتقادهم إلى أهل القدر))

(١) طبقات الشافعية الكبرى (5/ 338)

(٢) سعد الزنجاني هو الامام العلامة الحافظ القدوة العابد ابوالقاسم سعد بن علي بن محمد الزنجاني المتوفى سنة ٤٧١ هجرية(تذكرة الحفاظ ١١٧٤/ ٣)

وصنف كتابا يزيد على عشرين جزء اً في الرد على القدرية، وأهداه إليه فرضي عنه وطاب قلبه[1].

المطلب الخامس: شيوخه وتلاميذه:

لايمكن في هذا البحث المختصر إحصاء كل شيوخه وتلاميذه لكثرتهم، ومما يدل على ذلك قول ابن خلكان :(إن أبا المظفر جمع في الحديث ألف حديث عن مائة شيخ[2])وهذا في الحديث وحده، فكيف ببقية العلوم الأخرى.

وأما تلامذته فهم أيضا كثر، ولعلي أكتفي بقول حفيده :(روى لي الحديث عنه جماعة كثيرة تزيد على خمسين نفرا [3]) هذا عدد تلامذته الذين سمعوا منه الحديث، ثم سمع منهم حفيده.وهذا في علم الحديث فقط فكيف ببقية العلوم الأخرى.

المطلب السادس: مؤلفاته:

من أهم مؤلفاته:

- في التفسير:

(١) المرجع السابق (5/ 344)

(٢) وفيات الأعيان (2/ 211)

(٣) الأنساب (7/ 225)

وهو الكتاب الذي سأتكلم عن منهجه فيه، قال ابن العماد الحنبلي [1]:(وله تفسير جيد حسن[2]).

وقال أبو سعد بن السمعاني: (صنف التفسير الحسن المليح الذي استحسنه كل من طالعه)[3]وهو كتاب مطبوع.

- **في الحديث:**

1- الأحاديث الألف الحسان[4].

2- الأمالي في الحديث[5].

- **في العقيدة:**

1- كتاب الرد على القدرية[6].

2- منهاج أهل السنة[1].

---

(١) ابن العماد الحنبلي :هو عبد الحي بن احمد بن محمد بن العماد ابو الفلاح الحنبلي مؤرخ فقيه عالم بالأدب المتوفى سنة ١٠٨٩ هجرية، الأعلام للزركلي ٣/٢٩٠

(٢) شذرات الذهب (3/ 393)

(٣) الأنساب (3/ 298)

(٤) هدية العارفين (2/ 473)

(٥) سير أعلام النبلاء (19/ 116)

(٦) الأنساب (3/ 298)

3-الانتصار لأصحاب الحديث[٢].

- **في الفقه(٣).**

1- البرهان

2- الأوسط

3-الاصطلام.

- **في أصول الفقه(٤):**

له كتاب واحد في هذا الفن وهو: قواطع الأدلة.

والموجود من مصنفاته التفسير والاصطلام وقواطع الأدلة، وكلها مطبوعة.

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

المطلب السابع: ثناء العلماء عليه:

كل من ترجم لأبي مظفر أشاد بجهوده العلمية، وأثنى عليه، قال عنه إمام الحرمين[1]:(لو كان الفقه ثوبا طاويا لكان أبو المظفر طرازه)[2].

وقال عنه حفيده أبو سعد: (إمام عصره بلا مدافعة، وعديم النظير في وقته، ولا أقدر أن أصف بعض مناقبه، ومن طالع تصانيفه وأنصف، عرف محله من العلم[3].

وقال عنه الذهبي[4]: (تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة.وكان شوكا في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة[5].

وقال ابن خلكان: (إمام عصره بلا مدافعة، وعديم النظير في وقته....)[1]

---

(١) امام الحرمين هو أبو المعالي عبدالملك بن الإمام ابي محمد عبدالله بن يوسف الجويني ضياء الدين صاحب التصانيف المتوفى سنة (٤٧٨ه)(المنتظم لابن الجوزي ١٨/ ٩)

(٢) السير (19/ 118) طبقت الشافعية (5/ 342)

(٣) الأنساب (3/ 299)

(٤) الذهبي هو الامام الحافظ شمس الدين ابوعبدالله محمد بن احمد بن عثمان التركماني المتوفى سنة ٧٤٨ه (شذرات الذهب ١٥٣/ ٣)

ابن خلكان هو شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان الشافعي قاضي قضاة دمشق وعالمها ومؤرخها المتوفى سنة ٦٨١ه (البداية والنهاية ٣٠١/ ١٣)

(٥) السير (19/ 116)

المطلب الثامن: عقيدته:

بالنظر إلى تفسير الإمام السمعاني نجده ملتزما بعقيدة أهل السنة والجماعة، تلك العقيدة القائمة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو سلفي المعتقد، فقد وافق السلف في جميع المسائل الاعتقادية، وقد مرّ معناقول الإمام الذهبي: تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكا في أعين المخالفين وحجة لأهل السنة.

المطلب التاسع: وفاته:

توفي رحمه الله في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ودفن في إحدى مقابر مرو[٢].

(١) وفيات الأعيان (3/ 211)

(٢) وفيات الأعيان (3/ 211)

المبحث الثاني

منهجه في تفسيره

سار الإمام السمعاني في تفسيره للقرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة والتابعين، واهتم بهذا الأمر كثيرا، إضافة إلى الأدوات التي لا غنى للمفسر عنها، كعلوم القرآن، والقراءات وعلم اللغة وغيرها، ولعلي أجمل منهجه في المطالب التالية:

المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

اعتنى الإمام السمعاني بتفسير الآية القرآنية بآية أخرى، وهذا النوع واضح وجلي في تفسيره.

فعندما فسر قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] قال: وتلك الكلمة وعده الذي وعدهم، وذلك في قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥]، فلما أورثهم تلك الأرض وأنجزهم ذلك الوعد قال ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ تم وعده لهم[1].

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾

(١) التفسير (2/ 209-210)

[النساء: ١٤٠]، قال السمعاني: ((هذا إشارة إلى ما أنزل في سورة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٨] [1].

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ [ص: ١]، قال السمعاني:أَي: ذِي الشّرف، وَقد قَالَ فِي مَوضِع آخر:﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ ﴾ [الأنبياء: 10] أَي: شرفكم.

ومن ذلك قوله فإن قيل: قد قال:﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ﴾ [سبأ: ١٦]، قال: وَالْأَرْض الَّتِي فِيهَا أَشجَار الأثل والخمط لَا تسمى جنَّة؟ وَالْجَوَاب عَنهُ: إِنَّمَا سمي ذَلِك على طَرِيق الْمُقَابلَة، وَهُوَ مثل قَوْله تَعَالَى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وَقَوله:﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [الشورى: ٤٠][2].

المطلب الثاني:تفسير القرآن بالسنة.

فسر الإمام السمعاني القرآن بالأحاديث النبوية، ومن ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ حيث أورد حديث كعب بن

(١) التفسير (1/ 492)

(٢) التفسير 4/ 327

عجرة الذي في بيان معنى الفدية، فقال: عن كعب بن عجرة أنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية، وكنت أنفخ تحت القدر، والقمل يتهافت على وجهي فقال صلى الله عليه وسلم: ما هذا؟ احلق رأسك، واذبح شاة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين [1]. فهذا معنى قوله ((ففدية من صيام أو صدقة أو نسك))[2]، ومن ذلك أيضا ما ذكره عند قَوْله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]، قال: أَكثر أهل التَّفْسِير على أَن سبأ اسْم رجل، ونسبت الْقَبِيلَة إِلَيْهِ، كَمَا أَن تميما اسْم رجل، ونسبت الْقَبِيلَة إِلَيْهِ. وروى فَرْوَة بن (مسيك الغطيفي) أَن رَسُول الله قَالَ: سبأ اسْم رجل ولد عشرَة من الذُّكُورفتيامن مِنْهُم سِتَّة،وتشاءمأَرْبَعَة، وَأما السِّتَّة الَّذين تيامنوا: فحمير، وَكِنْدَة، ومذحج، والأزد، والأشعر، وأنمار، وَأما الْأَرْبَعَة الَّذين تشاءموا: فعاملة، وغسان، ولخم، وجذام"[3].

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، أَكثر الْمُفَسّرين أَن هَذَا فِي الْقَبْر. وَمن الْمَعْرُوف عَن ابْن مَسْعُود أَنه قَالَ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج باب قول الله تعالى ((فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك)) (2/ 208).

(٢) التفسير (1/ 197)

(٣) التفسير 4/ 324_325والحديث أخرجه الترمذي (3222) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2574)

أَرْوَاح آل فِرْعَوْن فِي حواصل طير سود يردون النَّار غدوا وعشيا. وَقد ثَبت بِرِوَايَة مَالك، عَن نَافِع، عَن ابْن عمر أَن النَّبِي قَالَ: "إِن أحدكُم إِذا مَاتَ يعرض عَلَيْهِ مَقْعَده بِالْغَدَاةِ والعشي، إِن كَانَ من أهل الجنة فالجنة، وَإِن كَانَ من أهل النَّار النَّار، وَيُقَال: هَذَا مَقْعَدك يَوْم الْقِيَامَة"(١)

المطلب الثالث: تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

اعتمد الإمام السمعاني في تفسيره على الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين مع اعتماده على الكتاب والسنة

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧]، أورد أقوال الصحابة في بيان معنى الآية فقال: قال ابن عباس: هم المصلون بالليل. وقال أنس: هم السائلون بالمغفرة. وقال زيد بن أسلم: هم المصلون صلاة الصبح في الجماعة. وإنما قيده بالأسحار لقرب صلاة الصبح من السحر (٢). وقال في قوله تعالى :﴿ صٓ ﴾ وَأما معنى (ص): روي عَن ابْن عَبَّاس أَنه قَالَ: صدق مُحَمَّد، وَعَن الضَّحَّاك: صدق الله، وَقَالَ مُجَاهِد: هَذَا من فواتح السُّور، وَقَالَ قَتَادَة: اسْم من أَسمَاء الْقُرْآن، وَهُوَ قسم(٣).

(١) التفسير 5/ 23والحديث أخرجه البخاري في صحيحه رقم (1290) ومسلم (5110)

(٢)التفسير (1/ 301)

(٣) التفسير 4/ 423)

وعند تفسير قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، قال : وروي عَن أبي بكر الصّديق رَضِي الله عَنهُ أَنه قَالَ: استقاموا أَي لم يشركوا بِاللَّهِ شَيْئا، وَعَن عمر رَضِي الله عَنهُ قَالَ: لم يروغوا روغان الثعالب[1].

ومن ذلك أيضا ما كره عند قَوله تَعَالَى : ﴿قَالُواْ يَوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، قَالَ ابْن عَبَّاس: يرفع عَنْهُم الْعَذَاب مَا بَين النفختين. وَعَن أبي بن كَعْب قَالَ: ينامون نومَة قبل الْبَعْث. وَعَن مُجَاهِد قَالَ: يرفع عَنْهُم الْعَذَاب فيهجعون ويرقدون[2].

المطلب الرابع: عنايته بالقراءات.

اعتني الإمام السمعاني في تفسيره بالقراءات القرآنية سواء كانت صحيحة أم شاذة، ولا يكتفي بهذا بل يرجح ويوجه.

ومن ذلك ما جاء في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، قال: في الآية قراءات:فالقراءة المعروفة هذا، وقرأ ابن عباس وعائشة –وهو صحيح عن ابن عباس:((وعلى الذين يطوقونه))، وقرأ مجاهد: (وعلى الذين يطوقونه). وهما في الشواذ[3].

(١) (التفسير 5/ 49)

(٢) التفسير 4/ 382

(٣) التفسير (1/ 180)

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ [سبأ: 16]، حيث قال ((أكل خمط)) بتنوين اللام، وقرئ ((أكل خمط)) بغير التنوين على الإضافة، والقراءة على الإضافة أظهر القراءتين في المعنى لأن الخمط اسم لشجر له شوك[1].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل: ٢٥]، قال: قوله ((ألّا يسجدوا لله)) وقرئ ((ألا يسجدوا لله)) مخففا، فأما من قرأ ((ألاّ)) مشددا فمعناه قصدهم عن السبيل ألا يسجدوا، يعني لئلا يسجدوا، وقيل معناه: (وزين لهم الشيطان أعمالهم ألا يسجدوا) وعلى هذه القراءة: لاسجود عند تلاوتها، هكذا ذكره أهل التفسير، وأما قراءة التخفيف فمعنى قوله ((ألا يسجدوا)) أي: ألا يا هؤلاء اسجدوا[2].

ويأتي أحياناً بقراءات شاذة فيصرِّح بها تارة ولا يُصرِّح بها أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس:٥٢]، يذكر قراءة ابن مسعود (من أهبنا من مرقدنا)[3] وهي قراءة شاذة ولكن لم يصرح بها.

(١) التفسير (4/ 326)

(٢) التفسير (4/ 90-91)

(٣) التفسير 4/ 382

المطلب الخامس: عنايته بمباحث علوم القرآن في تفسيره.

اهتم السمعاني في تفسيره بمباحث علوم القرآن، فعند تفسيره لسورة المائدة يقول: سورة المائدة مدنية كلها إلا قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]، فإنه نزل بعرفات(١).

وفي تفسيره لسورة القصص يقول: وفي هذه السورة آية ليست بمكية ولا مدنية وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، نزلت هذه الآية بين مكة والمدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة وهو منزل من المنازل، وذلك حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة(٢).

ومن هذين النموذجين يظهر لنا أن السمعاني يرى في معنى المكي والمدني باعتبار المكان، فالمكي عنده ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة".

وعند تفسيره سورة الزمر يقول: "تفسير سورة الزمر، ويقال سورة الغرف وهي مكية إلا قولـه تعالى :﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وإلاّ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر: ٥٣](٣).

ومن الأمثلة على ذكر أسباب النزول في تفسيره ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]، قال: سبب نزول الآية أن ذا الخويصرة التميمي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم، فقال: يارسول الله اعدل ؛

(١) التفسير (2/ 5)

(٢) لتفسير (2/ 120)

(٣) التفسير 4/ 457

قال: فمن يعدل إن لم أعدل ؛ ثم قال:يخرج من ضئض ئ هذا أقوام تحقرون صلاتكم عند صلاتهم وصيامكم عند صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1]، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

ومن الأمثلة على ذلك قوله: وَفِي التَّفْسِير: أَنّه لما نزلت هَذِه الْآيَة؛ قَالَ أَبُو جهل: هَل تعرفُون الزقوم؟ فَقَالَ عبد الله بن الزبعري: نعم نعرفه؛ هُوَ بِلِسَان البربر الزبدة وَالتَّمْر وَأورد بَعضهم: أَنه بلغَة الْيمن فَقَالَ أَبُو جهل لجاريته: ابغي لنا زبدا وَتَمْرًا، فَجَاءَت بذلك، فَقَالَ: هُوَ الزقوم الَّذِي خوفكم بِهِ مُحَمَّد، فتزقموا؛ فَأنْزل الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات: ٦٤] أَي: فِي قَعْر الْجَحِيم[3].

المطلب السادس: موقفه من الإسرائيليات.

الإمام السمعاني كغيره من المفسرين لم يستطع التخلص من تلك الروايات الإسرائيليات بل يسوقها بدون نقد أو تعقيب، فمثلا يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ [ص: ٢٣]، إن داود عليه السلام كان قد خصص أياما لعبادة الله، وأياما للقضاء، وأياما للجلوس مع الناس، وأياما لأزواجه، وفي يوم من الأيام كان يتلو التوراة والزبور، فإذا هو بطائر عليه اللآلئ، فطمع داود في تلك اللآلئ والألماس، وأراد أن يمسكه فطار الطائر، وطارد داود عليه السلام، فرأى فجأة أمامه امرأة حسناء كانت تغتسل وهي عارية، فوقع حبها في قلبه، وسأل عنها، ثم أرسل

(١) أخرجه البخاري كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج (8/ 52-53)

(٢) التفسير (2/ 319)

(٣) التفسير 4/ 401

زوجها إلى الجهاد، ودبر خفيا أن يقدم الرجل في الجيش كي يقتل، فقتل، وبعد ذلك تزوج داود عليه السلام بها [1].ثم ذكر الإمام السمعاني أنّ داود عليه السلام ندم على ذنوبه، وخر ساجدا باقيا في سجدته أربعين يوما، لم يرفع رأسه حتى نبت العشب حوله، وظل باكيا، لم ينقطع عنه الدموع عند مأكله وملبسه ومنامه، ومع ذلك إذا قام يوم القيامة تكون ذنوبه منحوتة على كفيه[2].

فهل يمكن لأي عاقل أن يصدق أن نبيا أكرمه الله بالنبوة يطمع في مال طائر لا يساوي شيئا مما آتاه الله، أو يقع في عشق امرأة ويدبر مؤامرة لقتل زوجها.

ومن الإسرائيليات الغريبة المستنكرة ما ذكره في وصف الدابة التي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، فيروي عن علي ﷺ قوله: ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية، كأنه يشير إلى رجل وليست بدابة. ويقول: والأكثرون على أنها دابة وهي تخرج في آخر الزمان، ويذكر قول ابن الزبير: هي دابة رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير، وأذنها إذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها النعامة، وصدرها صدر أسد، وجلدها جلد نمر، وخاصرتها خاصرة هر وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً...القصة[3]

وكان حريا بالإمام السمعاني –وهو إمام في الحديث– أن ينبه – عند رواية مثل هذه الروايات التي تمس عصمة الأنبياء – على زيفها وبطلانها.

(١) التفسير (3/ 164)

(٢) التفسير (3/ 165)

(٣) (التفسير 4/ 113)

المطلب السابع: التزامه بعقيدة السلف في تفسيره.

قرر الإمام السمعاني عقيدة السلف من خلال تفسيره للآيات المتعلقة بذلك، فمن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]؛ حيث قال: وهذا دليل لأهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص[١].

وكذلك في الأسماء والصفات سار فيها على منهج السلف، يثبت ما أثبته الله لنفسه من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف[٢].

ومن ذلك ما ذكره في الاستواء على العرش عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، قال الإمام: "أوَّل المعتزلة الاستواء بالاستيلاء وأنشدوا فيه:

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وأما أهل السنة فيتبرؤون من هذا التأويل ويقولون: إنّ الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف والإيمان به واجب كذلك يحكى عن مالك بن أنس وغيره من السلف، أنهم قالوا في هذه الآية، الإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[٣].

ويرد رحمه الله على الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة: فعند قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، قال: "وهذا دليل على أنّ النار مخلوقة لا كما قال أهل البدعة، ودليل على أنّها مخلوقة

(١) التفسير (2/ 248)

(٢) انظر ما ذكره في تفسيره (1/ 51) (4/ 387-480)

(٣) (التفسير 2 / 188)

للكافرين، وإنْ دخلها بعض المؤمنين تأديباً وتفريكاً، لأنّ أهل السنة اتفقوا على أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآنّ، ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما يوم القيامة"[1]

المطلب الثامن: عنايته بالجوانب اللغوية.

اعتنى الإمام السمعاني عناية كبيرة ببيان المعاني اللغوية لمفردات الآيات القرآنية، وقد أكثر من ذلك في تفسيره، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٣]، قال: وأما الزكاة فمأخوذ من زكا الزرع، إذا كثر ونما، وقيل هي من تزكى أي تطهر، وكلا المعنيين موجودة في الزكاة المفروضة لأن فيها تنمية المال وتطهيره[2].

المبحث الثالث

ما يؤخذ على تفسير السمعاني.

من المعلوم أنّ تفسير الإمام السمعاني من كتب التفاسير القيمة والحسنة، فهو يحمل عديدا من الفوائد، وقد أثنى عليه كثير من العلماء، ولكن الكمال لله وحده، وكل تفسير لايخلو من المأخذ. ومن أهم المآخذ التي أخذت عليه في تفسيره ما يلي:

أولا:إيراده لبعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة دون أن ينبه على ضعفها ووضعها.

(١) التفسير 1/ 59

(٢) التفسير (1/ 73)

ثانيا:إيراده للأخبار الإسرائيليات دون أن ينبه عليها.

ثالثا: ذكره للأحاديث الصحيحة بصيغة التمريض.

رابعا: عدم عزو الأقوال إلى قائلها.

خامسا: الإحالة على ما سبق بيانه في معنى الآية دون ذكر الموضوع المحال عليه، فلا يصرح بالموضوع بل يكتفي بقوله: قد بينا أو قد ذكرنا ذلك من قبل.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج:

1 - جمع الإمام السمعاني في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي وإن كان المأثور هو الغالب عليه.

2 - عنايته بالقراءات القرآنية وبيان الشاذ منها والاستعانة بها في تفسير الآيات.

3 - اهتمامه بالتوجيه النحوي اهتماما بالغا.

4 - التزامه في تفسيره للآيات العقدية بالمنهج السلفي.

5 - اشتمال تفسيره على جملة من النكات واللطائف التفسيرية التي تتعلق بالآيات القرآنية.